الفصل الخامس

الثورة الاغريقيـــة

إن الوطنيين الإغريق الستين ، الذين اجتمعوا فى إبيدورس Epidaurus فى اليوم الثانى عشر من يناير عام ١٨٢٢ ونادوا باستقلال الأمة اليونانية ، قد خلدوا أسماءهم فى صحف المجد والفخار فى العالم أجمع ؛ وهم جديرون بهذه العبارة المنقوشة على جدران البانثيون Pantheon تمجيدا لذكرى كثير من أبناء فرنسا العظماء : « إن الحضارة بأجمعها مدينة لهم بالشىء الكثير » ؛ نعم إنك قد تسمع الآن بعض الجدل عن الحدود الصحيحة لبلاد « الأمة اليونانية » التى أنشأتها تلك الثورة ، لكن تركية مصطفى كمال تدين بمبدإ القومية إلى حد يجعلها تشترك مع العالم فى تمجيد الكسندر مفروكرداتو Alexander Mavrocordato وزملائه ، وتشيد بمدح شجاعتهم ووحى أفكارهم .

أما فى وقت قيام الثورة فقد كان الروح المسيطر على الغرب هو روح مؤتمر ويانة Vienna ؛ وكان مترنيخ Metternich لا يزال فى إبان مجده ، كما كان ولنجتن Wellington هو النجم الساطع فى أفق السياسة البريطانية ، وكان ملك من آل بوربون Bourbon يستوى على أريكة فرنسا . وملاك القول أنه لما جرأ الوطنيون على أن يتغنوا بنشيد الحرية ، تلك النغمة الناشزة فى لحن أوربا المتسق ، اصطكت لنغمتهم مسامع أسرة الدولة الأوربية .

والحق أن العالم الدبلوماسى فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان يخشى

أن يزداد نفوذ الروسيا وسلطانها إذا نال الإغريق استقلالهم . ومنشأ هذا الخوف هو اعتقادهم أن انتصار المذهب الأرثوذكسى يضاعف هيبة قيصر الروسيا . نعم إن الدعوة التى كان ينشرها أصدقاء الإغريق قد أثرت فى عواطف القوم ، لكن الدهاة المسيطرين على سياسة العالم كان يدور تفكيرهم حول التوازن الدولى ، وكانت كثير من المهازل تدبر من وراء الستار كما تدبر مهازل هذه الأيام . وزاد عدد المؤتمرات زيادة جعلت چورج كاننج George Canning يجهر بقوله : « انتهت المؤتمرات والحمد لله »[1] . لكنه قدر فأخطأ التقدير ، فقد كانت ثورة اليونان وغيرها من المشاكل سببا فى عقد مؤتمر عالمى فى ڤيرونا Verona فى صيف عام ١٨٢٢ . وأدرك بيرون Byron أن مجهود هذا المؤتمر سيذهب أدراج الرياح ، ولذلك حيا انعقاده بهذه العبارة : « ما أغرب هـذا المؤتمر الذى قدر له أن يضم شتات كل المتناقضات والأضداد ؛ ولا أعنى بقولى الملوك فهؤلاء كلهم سواء كأنما قدوا من أديم واحد ؛ وإنما أعنى من يسيطرون على هذه الشخوص ويحركون تلك الأشباح ، أعنى اليهود والمؤلفين والقواد والمشعوذين . لقد اجتمع هؤلاء فى صعيد واحد ووقفت أوربا تنظر إلى جماعتهم كالمكسور فى ذرعها » .

وما أصدق ما قاله هـذا الشاعر : ذلك بأن مترنيخ Metternich « أكبر أنصار القوة والمتطفلين على موائدها » قد آلى على نفسه أن لا تقال فى الاجتماع كلمة ما عن استقلال اليونان . وكانت خطته تقضى بأن يسمح للمندوبين أن يتلاقوا فى اجتماعات خاصة ، على أن لا تعقد اجتماعات رسمية ولا تصدر مراسيم جدية[2] . وبلغ من حسن تدبيره وكرمه وبذله أن انفض مؤتمر ڤيرونا فى الحادى

(١) نقلها فليب جودلا فى كتابه « الدوق » طبعة هدر واستاتن سنة ١٩٣١ ص ٣٣٦ .

(٢) تاريخ اليونان السياسى من ١٨٢١ إلى الوقت الحاضر تأليف إدورد دريو طبعة مطابع جامعات فرنسا بباريس الجزء الأول ص ١٩١ .

والعشرين من نوفمبر ، والدول كلها راضية عما فعل ، والمشكلة اليونانية لم تحل . وقد لخص مترنيخ أعمال المؤتمر فى رسالة بعث بها إلى البرنس جيكا Prince Ghika فى السادس من ديسمبر عام ١٨٢٢ بقوله :

« وبذلك استقر الرأى نهائيا على عدم التدخل فى شؤون الدولة العثمانية ؛ وهذا عمل عظيم . ومما هو خليق بأن يخلد فى تاريخ هذا العصر ، أنه لم يرتفع فى مؤتمر فيرونا صوت واحد للدفاع عن الإغريق ، بعد هذا الجدل المنيف وهذه المناورات الدبلوماسية ، وبعد كل ما أثارته هذه الفتنة الحمَّاء فى كل الأمم الأوربية كافة من قلق واضطراب »(١) .

وإذا حاولنا أن نتتبع الأدوار التى مر فيها كفاح الإغريق لنيل استقلالهم لطال بنا المقال وخرجنا عن الغرض الذى نرمى إليه فى هذا الفصل من الكتاب . وحسبنا أن نقول إنه بينما كانت بلاغة الشعراء تصور ما حل ببلاد اليونان من محن وقوارع ، وبينما الصحف تطيخ الترك بكل قبيح فيزيدها ذلك ذيوعاً وانتشاراً ، وبينما الساسة ينادون صاخبين بضرورة الاعتراف باستقلال « الأمة اليونانية » اعترافاً رسميا فيزدادون فى قلوب الشعوب حبا وإعزازاً ، بينما هؤلاء وأولئك يفعلون هذا ، كان رجال الحكم المسئولون جامدين لا يبدون حراكا ، وقست قلوبهم فلم يؤثر فيهم دعاء ، وأصموا آذانهم عن سماع صوت الحق والعدالة .

لكن اليونانيين ، وهم قوم مهرة بارعون ورثوا براعتهم عن آبائهم الأولين ، استثمروا شكواهم وبلواهم فى سوق سندات لندن ، فعقدوا لهم فيها قرضاً فى حى المال ، إذ استطاع اثنان من أبعد مندوبيهم نظراً وهما أرلندوس Orlandos ، لوريوتى Lourioti أن يحصلا من أولاد لومان وأبرين Loughman Sons and

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٤ .

O'Brien فى ٢١ يناير سنة ١٨٢٤ على ٨٠٠٠٠ جنيه إنجليزى بفائدة ٥ ٪ ، إذا أضيفت إليها السمسرة والخصم ونحو ذلك ارتفع هـذا السعر فى قول بعضهم إلى ٥٩ ٪[1]. لـكن هذا لم يكن يهم ذينك الوطنيين لأنهما نالا بعقد القرض ما كانا يبغيان ، ونجحا فيما لم ينجح فيه شعر بيرون وغناؤه ، إذ جعلا لأصحـاب المصارف والسماسرة مصلحة مالية فى استقلال اليونان .

ويلوح أن أرلندوس Orlandos ولوريوتى Lourioti لم يسعيا للحصول على المال من الفرنسيين ، لأنهما كانا رجلين عمليين خبيرين بنفسية الشعوب ، ولا يريان من المصلحة أن تذهب جهودهما مع الريح ؛ بل استخدما ذكاءهما فيما هو مستطاع ، فجعلا همهما — وجعلت إحدى الجمعيات اليونانية الأخرى همها — أن يستفيدا أكبر فائدة من غرام الفرنسيين بالمجد والفخار . وهدتهما قريحتهما إلى حصر همهما فى زينة الرؤوس التى أولع بها الفرنسيون ، كما يقول فيهم « لاروس الصغير الجديد » ، فعرضا أن يجلس على عرش اليونان الذى لم توضع قواعده بعد رجل من أبناء فرنسا وهو الدوق ده نمور Duc de Nemours ، وهو أمير من بيت أورليان Orleans فرع آل بوربون Bourbons الجالسين على عرش فرنسا وقتئذ . ومع أن رئيس الحـكومة اليونانية المؤقتة لم يرض لدهائه أن يقيد نفسه بهذا العرض ، فإن ذلك لم يمنع مجالس باريس من أن تعطف على قضية الحرية اليونانية ، لظنها أن استقلال اليونان قد يزيد فى هيبة فرنسا ومجدها

لـكن هذين الاعتبارين ، لغموضهما وعدم صراحتهما ، لم يثيرا فى العـالم الدبلوماسى حركة ما ؛ ولم تصخ أوربا بسمعها إلى نداء الوطنيين اليونانيين إلا بعد أن أصبحت قرصنتهم خطراً يهدد تجارة الأمم الغربية فى شرق البحر الأبيض

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ٢٣١ .

المتوسط . وكان الأتراك قد تعس جدهم فى الحرب زمناً ما ، لكن جيوش السلطان مع ذلك كانت أقوى من أن يفت فى عضدها الثوار ؛ ولم يتفوق هؤلاء عليها إلا فوق متن البحار ؛ أما بلاد اليونان الأصلية فقد اجتاحها الأتراك ، وبقيت الجزائر اليونانية وحدها بزعامة هيدرا Hydra ، إسبيزيا Spezia يخفق عليها صليب الأرثوذكسية .

وكان يسكن هاتين الجزيرتين شعب من البحارة المهرة ، يتراوح عدده بين خمسة وعشرين وثلاثين ألفاً ، يعملون فى التجارة والملاحة ، جمعوا ثروة هائلة من تجارتهم مع بلاد البحر الأسود وشرق البحر الأبيض المتوسط . فلما شبت الثورة تدفقت هذه الأموال فى خزائن الوطنيين اليونانيين ، فكان هؤلاء القوم يمدونهم بالمال ويجهزون السفن بالسلاح . وأظهر زعيمان منهم هما ميولس Miaulis ، كنارس Canaris ضروباً من البطولة كأنها لغرابتها من نسج الخيال . لكن ثروتهم وإن عظمت لم تكن لتبقى أبد الدهر ، بل سرعان ما نضب معينها ؛ كما أن المال الذى استدين من لندن نفد بعد حين . أما الحرب فقد طالت ولم يخمد لظاها . وذلك بأن وطنية هؤلاء القوم لم تطفأ نارها حتى بعد أن أقوت خزائنهم من المال . ولم يكن أمامهم جميعه إلا سبيل واحدة هى أن يعمدوا إلى القرصنة يتخذونها وسيلة للخير العام . ومن ذلك نشأت قرصنة البحر الأبيض اليونانية ، وليدة الحاجة والوطنية ، وهى التى قال فيها اللفتننت دون Lieutenant Douin إنها : « التهمت أموال المحايدين لتملأ بها خزائن الثوار »(١) .

وبدأت هذه القرصنة بداءة شريفة . ذلك أن أوربا كانت قد أعلنت

(١) نوران (من ٦ يوليه إلى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧) لجورج دون . طبعة الجمعية الجغرافية الملكية فى ١٩٢٧ ص ٣ .

حيادها فى النزاع المتوقع قيامه بين « الأمة اليونانية » والدولة العثمانية . وسرعان ما أدرك اليونانيون ما ينطوى عليه هـذا القرار من احتمالات ، فأعلنوا حصار الشواطئ التركية . ومع أنهم لم يكن لديهم أسطول ينفذون به قرارهم ، فقد كان هذا القرار حجة فى أيديهم يستخدمونه فى تنفيذ ما دبروه من قرصنة . « وتطورت الأمور تطوراً سريعاً » كما يقول تقرير رسمى أرسل إلى وزارة البحرية الفرنسية بتاريخ ٢٥ ابريل سنة ١٨٢٦ ، « فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى قامت عصب البحار بضروب من القرصنة لم ير العالم ما يماثلها فى الشدة والفظاعة »[(١)] .

واتخذت هذه القرصنة أشكالا مختلفة . و إذ كانت جزائر الأرخبيل اليونانى متقاربة لا يفصلها بعضها عن بعض إلا ممرات ضيقة ، فقد استطاع سكانها أن يشتركوا مع القرصان ، حتى استحال الشاطئ اليونانى كله مرتعاً لهم ومباءة للصوص ؛ وتوثقت الرابطة بينهم و بين رجال البحرية اليونانية الرسمية ، وأمعنوا فى اعتدائهم إمعاناً جعل ده رنى de Regny أمير العمارة الفرنسية يبلغ حكومته أن إحدى سفن القرصان المسماة Epaminondas التى أمسك بها متلبسة بجريمة القرصنة ، يمتلكها كندريوتس Conduriotis رئيس الحكومة اليونانية المؤقتة[(٢)] ، وذكرت التقارير التى أرسلتها القنصلية الروسية بالقاهرة إلى سانت بطرسبرج Saint Petersburg ضروبا من اعتداء القرصان اليونانيين المتكرر على سفن الدول المحايدة[(٣)] .

يقول المؤرخون فى معرض الدفاع عن هؤلاء القوم إن الدين والوطنية هما اللذان جعلا من هؤلاء الوطنيين قرصاناً ولصوصاً ، ولـكن أصحاب السفن من

(١) نقله دون فى المصدر السالف الذكر ص ٣ .
(٢) المصدر عينه ص ٥ .
(٣) قطاوى فى رسالته السالفة الذكر ص ٦٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ٩٧ الخ .

الإنجليز والفرنسيين وأهل سردينيا وروسيا لم يكونوا يبالون بهذا الجدل ؛ وكل ما كانوا يعرفونه أن متاجرهم ضاعت ، وسفنهم غرقت ، وأرواح بحارتها تعرضت للخطر ؛ وظلت قلوبهم قاسية لا تلين لدعاة النصرانية ، وأبواق الوطنية ، وعواطف أصدقاء اليونانيين ؛ حتى إذا ما تأثرت خزائنهم شمروا عن ساعد الجد وأخذوا يصيحون حتى أقضوا مضاجع رجال الحكم فى بلادهم ، وطلبوا إليهم أن يعملوا حيث يجب العمل للقضاء على هذا السلب والاغتصاب . واتبع الدبلوماسيون خطتهم المألوفة ، خطة الهجوم فى أضعف المواقع وأقلها مقاومة ، فصوبوا سهامهم نحو السلطان ، وطلبوا إليه أن يقضى على أعمال القرصان الإغريق .

قد لا يصدق القارئ هذه الأقوال أو قد يراها تهكما منا وسخرية ؛ ولكننا نؤيدها بأقوال چورج كاننج George Canning الذى خلف لورد كاسلرى على رأس وزارة الخارجية بلندن فى سبتمبر من عام ١٨٢٢ ، والذى تقول فيه دائرة المعارف البريطانية : « إن مكانته السياسية يقوم معظمها على الخطة التى سار عليها فى سياسته الخارجية فى تلك السنين ، خطة عدم التدخل ورعاية حركات الحرية والقومية فى أوربا ، أو الأخذ بيدها ومناصرتها بالفعل » . ولم يكد كاننج يتهيأ للعمل حتى اضطره موت كاسلرى الفجائى للذهاب إلى مؤتمر ڤرونا . وكان فى قرارة نفسه يعطف على اليونانيين ، كما أنه كان رجلاً طيب القلب قوى الأعصاب ثاقب الرأى . وكان ابن عمه السير استرتفورد كاننج Sir Stratford Canning الذى أصبح فيما بعد الڤيكونت استرتفورد ده ردكلف Viscount Stratford de Redcliffe سفير جلالة ملك بريطانيا فى الآستانة ؛ وكان كلاهما صادق الرغبة فى تحرير بلاد اليونان من نير السيادة التركية ، ولكن « چورج كاننج كان يشعر بأن موقفه الشريف — موقف الدفاع عن الإنسانية المعذبة —

لا يسعفه بالقوة اللازمة فى المفاوضات المقبلة ، فعرض أن تكون الأسباب المادية القائمة على « سياستنا التجارية » هى المحور الذى تدور حوله المناقشات » .

ولذلك كتب وزير الخارجيـة البريطانية إلى ابن عمه يقول : « تقدم بها (الشكاوى التجارية) ولج فيها ، لأننا إذا كان لا بد لنا من إثارة النزاع فعلينا أن نضم المصالح التجارية إلى جانبنا . وقد ظلت هـذه المصالح حتى الآن تؤجل ويتغاضى عنها بعض الشىء إرضاء لخاطر الروسيا ؛ فعليك الآن أن تتمسك بها » .

وبعد أن أورد المترجم لحياة لورد استرتفورد ده ردكلف نص هذا الخطاب أضاف إليه قوله :

« وبلغت القرصنة حدا جعل الأمة مالكة السفن تتخذها بحق موضوعاً للشكوى والاحتجاج . ولكن أسوأ ما فى الأمر أن أغلبية القرصان الكبرى كانت من الإغريق ؛ فلما بلغت الشكايات إلى الريس افندى أجاب هذا الجواب الطبيعى : دعونا نخمد نار الثورة القائمة علينا فى بلاد اليونان ، وكفوا عن التدخل الأجنبى ومناصرة الثوار فى الخفاء ، نقض على القرصنة فلا تعودون تسمعون عنها شيئاً »(١) .

فلما هبت أوربا لمهاجمة الأتراك تعزيزاً لمصالحها لا دفاعاً عن قضية تقرير المصير ، كان الباب العالى قد وطد سلطانه وأثبت تفوقه فى البر . ولما لم تكن له من التجارة البحرية إلا القليل ، فقد كان ما يحدث فى البحر قليل الخطر بالنسبة إليه ؛ وكان فى استطاعته أن يرقب أعمال القرصان اليونانيين وهو رابط الجأش مطمئن البال إلى حد ما ، لأن أثر هذه الأعمال لم يكن يمس تركيا من قرب ، ولم

---

(١) حياة النائب المحترم استرتفورد كاننج الفيكونت استرتفورد ده ردكلف تأليف استانلى لين پول طبعة لنجمان وجرين وشركائهما بلندن سنة ١٨٨٨ جزء ١ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

يكن يفهمه أولئك الأغبياء الذين يتولون الأمر فى الآستانة . لقد كان علم الهلال يخفق فوق ربوع اليونان ، وذلك أهم ما كان يعنى به السلطان . وقصارى القول أنه لما خضعت الحكومة العثمانية للجاجة الغرب وإصراره ، واعتزمت أن تضيق الخناق على القرصان اليونانيين ، فعلت ذلك مؤتمرة بأمر أوربا لكى تطهر البحار من الأخطار التى كانت تهدد سفن المحايدين .

ولجأت الآستانة إلى القاهرة تطلب إليها أن تتولى هى الأمر ، لاعتقادها أن محمداً عليًا قاهر الوهابيين لا يعجز عن قطع دابر فتنة الإغريق . ومن أجل ذلك عُين الباشا (سر عسكر) أى قائداً أعلى لجيوش الدولة . وكان قبل ذلك فى عام ١٨٢٣ قد أرسل جيشاً إلى جزيرة كريد بقيادة صهره حسن باشا ، أما فى هذه المرة فقد عقد لواء الحملة لابنه إبراهيم . ولم يكن محمد على وابنه عندما سيرا هذه الحملة يصدران فى عملهما عن تعصب دينى ، بل كل ما فى الأمر أنهما مسلمان ؛ وكما أن عامة المسيحيين تقريبا كانوا يعطفون على اليونانيين فى مناجزتهم الأتراك ، فإن هذين الرجلين المسلمين كانا يشعران بالعطف على إخوانهما فى الدين فى ذلك الصراع الذى ظل قائماً عدة سنين ، وكانا ينظران إلى الثوار نظرهما إلى القرصان السفاحين الذين يجب أن يعاملوا معاملة الخونة المارقين ، ويعتقدان صحة كل ما كان يرميهم به القناصل الأوربيون فى تقاريرهم المرسلة إلى وزارات خارجيتهم من اعتداء على المال وقسوة وسفالة .

ومما تحسن الإشارة إليه أن برناردن دروفتى Bernardin Drovetti ، قنصل الروسيا وفرنسا بالإسكندرية وقتئذ ، أبلغ سانت بطرسبرج فى الثامن عشر من فبراير سنة ١٨٢٤ أن محمداً عليًا صرح بأنه قد اعتزم أن يجعل اليونانيين ينظرون إليه نظر المحسن إليهم ، وأنه مقتنع بأنه سوف يستطيع أن يخمد ضرام الحرب

بالحسنى ومن غير أن يريق كثيرا من الدماء »[١] . وأرسل هذا القنصل نفسه تقريرين آخرين إلى باريس وسانت بطرسبرج يرجو فيهما أن يتمكن الباشا من المحافظة على « نياته الخيرة » ، ثم يقول دروفتى بعد ذلك « إنه ينوى أولاً أن يسلك طريق المسالمة والاعتدال قبل أن يلجأ إلى البطش والعنف »[٢] .

ولم نعثر بعد على أدلة رسمية تثبت أن محمداً عليًا أو إبراهيم قد فقد أحدهما الأمل فى كسب صداقة الإغريق ؛ ولكن لا شك أيضاً فى أنهما لم يتركا الأمور رهن الظروف والأقدار ، بل فعلا ما يفعل الرجال الحازمون العمليون ، فأفرغا مجهودهما فى حشد الجيش والأسطول والاستعداد للكفاح . وسعى الباشا ليحمل صاحب الجلالة المسيحية ملك فرنسا على أن يمده ببعثة حربية فرنسية ، تساعد المسلمين المصريين على إخضاع اليونانيين المسيحيين ؛ فأرسل لهذا الغرض فى صيف عام ١٨٢٤ رجلاً يسمى تورنو M. Tourneau ، وهو تاجر من تجار الإسكندرية ، وزوده بالأوامر اللازمة للاتصال بأولى الأمر فى فرنسا .

فاستشار هـذا الرسول القائد بليارد Belliard أحد النبلاء الفرنسيين والحائز لرتبة Lieutenant General فى الجيش الفرنسى ، فأحاله إلى الجنرال بوييه Boyer أحد الضباط الذين عملوا تحت قيادة نابليون فى مصر والشام . وكان هذا الضابط الأخير على وفاق مع المسيو دِه فليل M. de Villèle الذى كان يقوم مؤقتاً بأعمال رئيس الوزراء للملك لويس الثامن عشر . وتألفت بالفعل بعثة عسكرية من الجنرال ليفرون Livron والكولونيل جودن Gaudin والكبتن أدولف Adolphe ، بولان ده تارل Paulin de Tarle ، شنفيل Cheneville وبوجول Pujol ، وضم

(١) قطاوى فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٥٠ .

(٢) بعثة كريد والمورة (١٨٢٣ — ١٨٢٨) لشارل دريو طبعتها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٣٠ فى صفحتى ١١ ، ٢٣ .

إلى هؤلاء جراح وطبيب . ووافق الملك[(١)] على إرسال هذه البعثة ؛ ولكن يلوح أن أمرها بقي سرا مكتوما ، لأنه لم يكن من حسن السياسة أن يعرف الفرنسيون أن ملكهم البربونى الكاثوليكى يعين دولة مسلمة على قهر أمة مسيحية .

وألحقت بالجيش المصرى أيضاً بعثة بحرية فرنسية ، أو فرقة من الضباط البحريين الفرنسيين على أقل تقدير . وكان من بين رجالها المسيو لتلييه Letellier وبمبار Bompard ، شابير Chabert ، رينييه Reynier ، له دانتو Le Dentu دسنار d'Isnard ، مترير Matraire ، بريان Briand ، مافر Maffre ، لوسيانى Lucciani[(٢)] .

وبذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أن فرنسا الرسمية كانت تشجع محمداً عليا على أن يمحق الإغريق ، مهما بلغ من عطف الرأى العام الفرنسى عليهم ورجائه الحار أن يحقق الله آمالهم ؛ مدفوعا إلى ذلك بالصداقة اليونانية وحب المجد والفخار . ولا شك فى أن دافعى الضرائب والناخبين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن هذه المعاونة الخفية التى كانت تقدم للمسلمين .

وكما كان آل بوربون يعينون الإسلام على النصرانية كانت الوزارة الفرنسية تعلم أن فى الجيش اليونانى رجالا من الفرنسيين ، منهم الكولونيل فابفييه Fabvier وهو رجل فرنسى خدم تحت لواء نابليون إلى ما بعد موقعة ليبزج Leipzig ، ثم فى جيش لويس الثامن عشر فى أثناء المائة الأيام ، ثم اغتاظ بعد ذلك من عودة آل بوربون وقاده قلبه إلى بلاد اليونان حيث رفعته كفايته إلى أن صار قائد القوات اليونانية النظامية ، وأصبح هو الروح المحرك لأداة الثوار العسكرية

(١) بعثة حربية فرنسية لدى محمد على لجورج دوين طبعتها بالقاهرة الجمعية الجغرافية الملكية سنة ١٩٢٣ ص ٢١ .

(٢) الفرقاطات الأولى من أسطول محمد على الذى سبقت الإشارة إليه ص ١١٢ .

فى مبدإ أمرها . وكان ثمة فرنسى آخر فى البحرية اليونانية هو الكابتن چوردن Jourdin ، ويكفى أن نذكر للقارئ اسمه . نعم إننا لم نعثر على دليل يثبت أن الحكومة الفرنسية كانت راضية عن عمل فبڤييه أو چوردن ، ولكن وجودها بين صفوف الإغريق يحتاج إلى إيضاح وتعليل .

أما إنجلترا فليس لدينا ما يثبت أنها كانت تتبع مثل هذه السياسة المخاتلة . على أننا قد عثرنا ضمن المراسلات التى دارت بين محمد على و إبراهيم على خطاب مؤرخ ١١ نوفمبر سنة ١٨٢٤ يبلغ فيه الباشا ولده أنه جدد عقود بعض الضباط البحريين الإنجليز(١) ، و إن لم يكن فيه ما يدل على أن هؤلاء الضباط كانوا من رجال البحرية الملكية ، أو أنهم قد انخرطوا فى سلك البحرية المصرية . وأكبر الظن أنهم كانوا تجاراً بحريين استخدموا لنقل الجنود المصرية . و بين هذه المراسلات خطاب واحد ، إن لم يكن أكثر من خطاب ، يشكو فيه محمد على من معاونة الإنجليز لليونان(٢) . ومع هذا فچوردن ، الضابط البحرى الفرنسى الذى سبق القول عنه بأنه كان يعمل فى صفوف الثوار ، يتهم الإنجليز بالكيد لليونانيين ، لكنه لم يؤيد قوله بدليل .

وأقلع الأسطول المصرى من مياه الإسكندرية فى التاسع عشر من شهر يوليه عام ١٨٢٤ ، وكان يتألف من إحدى وخمسين بارجة حربية وست وأربعين ومائة نقالة(٣) . فأما البوارج الحربية فكانت بطبيعة الحال مصرية ، وأما النقالات فليس فى استطاعتنا أن نعرف أى الأعلام كان يخفق عليها . وعندما

(١) مجموعة رسائل محمد على طبعت بالقاهرة فى المطبعة الأهلية سنة ١٩٣١ وثيقة رقم ١٦٠ .

(٢) المصدر السالف الذكر وثيقة رقم ١٧٠ .

(٣) حملة كريد والمورة ص ٢٣ .

أبحرت السفن لم تكن الآستانة قد استقر رأيها على من يعقد له لواء الحملة المشتركة .

وكان بين الضباط ذوى الرتب العالية فى الأسطول المصرى رجل كرسيكى Corsican يدعى مارى Mari نبذ المسيحية واعتنق الإسلام وتسمى باسم بكير أغا ؛ ولكنه لم يوفق إلى أن يحسن النطق بالعربية أو يتخلى عن لهجته الكرسيكية فى نطق اللغة الفرنسية . وكان من بين رجال القوة المصرية أيضاً سليمان باشا الفرنسى ذى الشخصية الرائعة ، وأصله من مدينة ليون Lyons . أما بقية الضباط الفرنسيين فلم ينضموا إلى الحملة إلا بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت .

وكان إبراهيم وقتئذ رجلا مملوء الجسم ، قصير القامة ، كبير المقلتين ، براق العينين ، عالى الجبهة ، أصدأ اللحية ، تبرز شعراتها من وجه علته كثير من آثار الجدرى . وكان رغم قصره وامتلاء جسمه ، تبدو على مظهره كله دلائل النشاط والذكاء وحب المغامرة والرغبة فى الإفادة (١) . وقد وصف شخصيته كاتب عرف صفاته كلها دون واسطة وصفاً مفصلا فقال :

« هو رجل لا تفارقه الهيبة ولا حب العدالة ، أمره مطاع ، ثابت قوى العزيمة ، شجاع رحيم لين العريكة ، لكنه شديد الحرص على النظام لا يرضى أن يعمل أحقر رجل فى جيشه ما لا تطاوعه نفسه هو على عمله . يطيعه الناس ويخشونه أكثر من سواه ، لأن فى يده العقاب ؛ ومع ذلك التفت حوله قلوب جنده ... وإذ كانت الرتب العالية لا تتعارض فى نظر أبناء العرب مع الصراحة فإن الجند كثيراً ما يطلعونه على أسرارهم الخاصة . وكنت تراه فى الحروب الأخيرة دائم اليقظة لا يغفل عن الرقابة ، يدهش الناس بسرعة تنقله بين الجند دون أن يشعروا به ، لا يحيط به فى تنقله سوى أربعة أو خمسة من رجاله .

(١) لين پول فى كتابه السالف الذكر جزء ١ ص ٤٦٩ .

وكثيراً ما كان ينام على الثلج فى العراء ليضرب بذلك المثل لغيره . وهو حدب على جنوده ، يعطف عليهم ويحادثهم ، ويصغى إلى قصصهم ، ويبث فى قلوبهم الشجاعة ، ويشاركهم فى شعورهم واجتماعهم ، ويجلس معهم فى مضاربهم كأنه واحد منهم ، ولـكنه لا ينسى قط مقامه ، ولم يعرف عنه أنه ضحى يوماً بشرفه فسفك دماء أحد فى ساعة من ساعات غيظه . ولما كان إبراهيم يعرف أنه بطبعه حاد المزاج سريع الغضب ، فإنك تراه أحياناً إذا استثير يمشى ذهاباً وجيئة ، ويشم السعوط ويطلب قصبة التدخين كأنه يهدئ بهما أعصابه قبل أن يصدر أوامره(١) » .

ثم يقول هذا المؤلف نفسه : « وتراه فى ميدان القتال رابط الجأش لا يفارقه هدوءه إذا دنت ساعة الخطر أو ثارت عليه القبائل من حوله ؛ يبث فى جنوده روح الشجاعة والإقدام ، ويضرب لهم بنفسه خير مثل فى البسالة وخوض الغمرات ؛ وكثيراً ما استعان ببعد نظره وصدق فراسته على كشف ما يبث له من المصايد وينصب له من المكائد ... لـكن الجيوش كلها لا تخلو من الساخطين ولم يسلم خير القواد وأعقلهم من أعداء مخادعين فى معسكرهم . وخليق بنا أن لا نحكم على إبراهيم بما يقوله فيه الفرنسيون الواجدون عليه الجاحدون لنعمته ، وأن نستشعر الحذر حينما نقرأ ما كتبته عنه بعض الجرائد الأوربية . وليس معنى هذا أن إبراهيم كان معصوماً من الخطأ ؛ كلا فإن له أغلاطه ؛ ولـكنه لم يكن بالرجل الجلف ولا الهمجى الجاهل المتلهف على المعالى . ولولا جهود إبراهيم لما استطاع والده أن ينجز نصف ما أنجز . وأعلم الناس بذلك هو محمد على نفسه »(٢) .

---

(١) ياتس فى كتابه السالف الذكر الجزء الثانى ص ١٧٤ .
(٢) المصدر عينه الجزء الثانى ص ١٧ .